الكلمة والجدار !

حسن الطويل ـ المغرب

مرَّت عشرون دقيقة والحواس المتلهِّفة لا تمتدُّ إلى الهاتف الذكي الموضوعِ على الأريكة . هي مدَّة طويلة بالنسبة إلى معاذ. فليس من عوائده أن يصبر هذا الصَّبر العجيب، ويقاوم رغبته الجامحة في الاطلاع على رسائل المسنجر لعلها تحمل إليه خبرا ما .

إنه يعلم أن الأمل شبه منقطع في ظهورها من جديد؛ فقد أنهت كلَّ شيء ، وبقسوة بالغة ... قطعت التواصل معه ، وبعد يومين ، أراد الدخول إلى صفحتها في الفيسبوك ، فوجدها خلاء ! في لحظة غير متوقعة انتهت الحياة في هذه الصفحة الطافحة بالبهجة والذكريات اللذيذة ، وأحس نفسه يمتلئ بفراغها الموحِش ، ويصير ، هو الآخر ، صفحة معدومة الهوية والمعنى ...

ورغم كل هذا اليأس، كان معاذ يترقب، ويتمسك بخيط الأمل الرقيق ، ويمنِّي نفسه بحدوث معجزة ما ، ويقول في نفسه: لابد من الشك في الحقيقة نفسها ، ولابد من وجود ما لا نعرفه ، وعلينا أن نبحث ونبحث ، ونغير من زوايا البحث بين الفينة والأخرى ... ففي النهاية لا بد أن نجد ما لم نتوقعه نهائيا ، وتصير أفكارنا السابقة كذلك الضحك الصادر عن رجل بدين غير عابئ بالحياة وتقلباتها.

وخلال ثلاثة أسابيع ، المدة التي مرَّت على الحدث المؤلم ، وإذا استثنينا غفواته

المفاجئة ، لم يكن معاذ يفارق هاتفه لحظة واحدة . وكان في كل أحواله ، يحاول التأكد من أن الأمر يتعلق بالحظر من الصفحة وليس بسحب الحساب لدواع طارئة . وليعرف حقيقة ما حدث، كان يسأل الأصدقاء المشترَكين بينهما ، إن كان حسابها ظاهرا عندهم ؟ وفي كل مرة يأتيه الجواب الصادم ليجرِّعه الألم والحزن . وإلى جانب ذلك ، كان يكتب اسمها في محركات البحث ، أو يقرأ رسائلهما المتبقية في المسنجر ، ويحاول أن يكتب كلاما ما إليها ، وحين يضغط على " إرسال" ، يأتيه الجواب المألوف: " لا يمكن ذلك" .

كانت نفسه في حاجة إلى كلمة واحدة منها ، إلى كلمة من كلماتها التي ملأت حياته بهجة في وقت سابق ... من الصعب عليه أن يعيش الإلجام والحرمان في وقت واحد ... إنه لا يستطيع أن يقول لها شيئا ، ولا يأتيه منها حرف ... يشم رائحته الزكية، ويفحصه بقلبه، وينفذ إلى أعماقه طلبا للفناء ... إنه الحصار الذي لم يتوقعه . فلم يكن في علاقتهما ما ينذر بهذه النهاية المؤلمة . كل شيء كان يسير على ما يرام . وبسبب كلمة ، كلمة واحدة، حدث الجفاء ، ثم انقطع التواصل ، ثم وقع الحظر ... أي كلمة هذه استطاعت تدميره ؟ إنه مستعد الآن ليفدي خطيئته بآلاف الكلمات المطرزة ... ولكن ... من يحطم الجدار الأصم أمامه ؟

بعد انصرام العشرين دقيقة ، وهو ممتنع عن النظر إلى هاتفه ، ها هو معاذ يمدُّ يدَه إلى الأريكة أخيرا . إنها مدة كافية لصناعة المفاجأة السارة ... فهو لم يصبر هذه المدة ، إلا ليمنح لنفسه أملا أكبر في وصول رسالة منها ... أمسك هاتفه ، وفتح

بأصابعه المرتعشة بيانات صبيت الأنترنت ، واستعد سمعُه لالتقاط صوت وصول الرسالة المنتظرة . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . وضع الهاتف مرة أخرى على الأريكة ، واستلقى على سريره واضعا الوسادة على وجهه، وأغمض عينيه ، وتمنى أن تأخذه قوة ما إلى خارج الوعي ، وتلقيه إلى النسيان الأبدي والفراغ غير المحدود .